الأدب . . . ما هو ؟

بقلم أحمد الشايب
المدرس بكلية الآداب بالجامعة المصرية

١

قد يكون من الغريب ، بعد هذا التاريخ الأدبى الطويل ، وفى هذه النهضة الأدبية الحديثة ، أن نعرض للتعريف بالأدب أو نحتاج إلى تحديده من جديد بعد ما قال فيه السابقون ما قالوا ، وتناقش حوله المعاصرون منذ عهد قريب . حقا قد يبدو ذلك غريبا أول الأمر ، ويحمل الناس على التبرم بالباحثين ، فيسألون أنفسهم : ما ذا يعنينا من هذه التعاريف ما دمنا نقرأ النظم والنثر ، ونظفر منهما بهذه اللذة العقلية والشعورية ؟ أليست هذه الحدود أنواعا من عبث العلماء أولا ، ومن تعقبهم الأدباء ثانياً تعقبا يدل على فراغ وفضول ؟

أجل ، لست أنكر أن الأدب هو الشعر والنثر ، ولست أنكر أن أكثر الناس يكتفون بهذا القدر من تعريف الأدب وتصوره ، ولكن هذا نفسه هو الذى يدعونى إلى القول فى تحديد الأدب وبيان طبيعته وما يفرقه من العلم ويصله بالفن ، وبالفن الرفيع خاصة ، فلقد انقضت فيما أعلم هذه الفترة التى كان الناس يكتفون فيها بالثقافة العامة ، ويقنعون بتصور الأشياء تصورا إجماليا ، وولدت عندهم الحاجة إلى الرقى ميلا إلى التعمق فى فهم الأمور وبحثها ليصلوا إلى تعرف طبيعتها وخواصها ، وما عسى أن يصلها بالحياة الاجتماعية مؤثرة أو متأثرة .

هذا شىء ، وشىء آخر يحملنى على هذا التحديد الأدبى أو محاولته ، ذلك أن كلا من الأدباء المنشئين والنقاد ، كثيرا ما يختلفون حول نص من النصوص :

أهو أدب حقا ؟ وفى أى نوع من الأنواع أو درجة من درجات الأدب يمكننا أن نضعه ؟ وأخيرا ماالمقاييس النقدية التى تتحكم فى نقد هذا النص وبيان قيمته ؟ . . . وأمر ثالث يحملنا على تقريب هذه الصورة الأدبية إلى الأذهان ، فلو سألت شخصا عن تعريف الأدب ، وأجابك بأنه مأثور الشعر والنثر ، ثم سألته : لم أثر هذا الشعر وذاك النثر . . اضطرب ، وأتى بكلام عام ، غير محدود ، وغير خاضع لنظام على مفهوم ، . . . وعلى أية حال فانى أشعر بحاجة هؤلاء الناشئين من الأدباء والنقاد إلى إيضاح طبيعية الأدب وعناصره ، وسأحاول فى هذا البحث أن أقرب إلى الأذهان ماذا يراد بكلمة (أدب) ، معتمدا فى ذلك على أهم ما قاله السابقون والمحدثون ، ثم على تحليل النص الأدبى وتفهم روحه وخواصه ، غير أنى أرجو من القراء أن يصبروا على قليلا إذا شعروا بالاطالة ، فلعل الموضوع نفسه يستحق منهم صبرا طويلا .

— ١ —

ما الأدب ؟

(١) سأترك الكلام فى اشتقاق الكلمة وأصلها الأول ، وأتناولها من قريب ؛ فقد كانت تدل فى القرن الهجرى الأول على معنيين اثنين : أحدهما خلقى ، والثانى تعليمى . ويستدل المؤرخون على هذا المعنى الخلقى بالأثر المشهور : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » ، إذ المراد أنه نشأه نشأة فاضلة تقوم على الصدق ، والحلم ، والصبر وغيرها من الفضائل الخلقية ؛ ومن ذلك ما سمى ابن المقفع كتابيه « الأدب الصغير » و « الأدب الكبير » ، لاشتمالهما على هذه الأصول والنظريات التى يصبح من تمسك بها أديبا ، أى فاضلا ذا خلق كريم .

ولكن هذا المعنى الخلقى لا يلائم تماما المعنى الذى نريد من كلمة أدب ، حين نطلقها فى باب الفن أو النقد ، بل ربما كان يناقضه ، فليس من شك بين المتأدبين أن أهاجى جرير والفرزدق أدب ، وأن خمريات وغزليات أبى نواس أدب ، وأن ذلك النوع المكشوف من الآثار الغزلية أدب . . ولكنه مع ذلك مرفوض

فى باب الأخلاق الفاضلة لا ينطوى تحت المعنى الخلقى الذى أشرنا إليه ، فلنترك ذلك ، إذا ، ولنبحث فى غيره .

(٢) وأما المعنى الثانى فقد مرت عليه أطوار شتى فى تاريخ الأدب العربى انتهت به إلى هـذا التعريف الذى ذكره العلامة ابن خلدون فى مقدمته ، حيث قال فى فصل تحت عنوان علم (الأدب) مانصه : « ثم إنهم إذا أرادوا حد هذا الفن قالوا: الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل فن بطرف . »

ومن الواضح أن هـذا ليس تعريفا للأدب بمعنى هـذه النصوص التى ندرسها وتنشئها شعرا ونثرا ، وإنما هو فى الواقع تعريف لما يسمى التأدب أو تحصيل الثقافة العامة اللازمة لإنشاء الأدب ، ولفهمه ، ونقده ، وأما الأدب بمعناه المراد هنا فليس تعريف ابن خلدون منه فى شىء ، وإن كان يتشبث به بعض المحدثين .

(٣) ويقول امرس Emerson الكاتب الأمريكى المعروف : « الأدب سجل لخير الأفكار » وهذا التعريف أو الوصف جامع غير مانع كما يقول المناطقة ، فإنه يتناول الأدب وغيره ، أليست المسائل العلمية ، من هندسة وكيمياء ، معدودة من خير الأفكار ؟ ومع ذلك فلم يقل أحد إن الهندسة أو الكيمياء أدب ، على أن هذا التعريف لم يشر إلى هذا العنصر اللفظى ، وكيف يجب أن يكون . . . فلنترك ذلك أيضا .

(٤) ويقول بروك Brooke : « الأدب هو أفكار الأذكياء وعواطفهم مدونة بأسلوب يلذ القارئ » وهذا التعريف خير من سابقه ، لأنه أشار إلى جمال الأسلوب الأدبى ، ولكنه لا يزال مبهما ؛ فهل يقبل الأدب جميع الأفكار والعواطف ، حتى الأفكار الهندسية والطبعية ، وحتى العواطف الشخصية ، والألمية ، والوضيعة ؟ أما الأفكار العلمية فلن تتراءى فى الأدب وتحتل مكانا ما وإن كانت تمسه من بعيد . وأما العواطف التى أشرنا إليها فهى موضع كلام كثير ، على أنها ليست من موضوع الأدب الرفيع على كل حال .

(٥) وهناك إجابة للأستاذ Sainte - Btave الكاتب والناقد الفرنسى المشهور عن سؤال يتصل بسؤالنا اتصالا مباشرا : «ماالأديب؟» قال : « الأديب

هو الكاتب الذى يغنى العقل الانسانى، ويزيد ثروته ، ويعينه على التقدم ، وهو الذى يستكشف الحقائق الأدبية ، ويزيل ما حولها من الشك والغموض، وينفذ إلى أعماق قلب الانسان فيستخرج منه العواطف الخالدة فى حين يظن الناس أن ليس هناك ما يكشف فى هذه المنطقة . وهو الذى يبرز أفكاره وحقائقه فى صورة دقيقة صحيحة جميلة معقولة ، وهو الذى يخاطب الناس بأسلوب هو أسلوبه الخاص ولكنه أسلوب جميع القراء، أسلوب قديم وحديث معا، صالح لكل زمان ومكان» .

وإن نحن أردنا استخلاص تعريف للأدب من كلام الأستاذ سانت بيف هذا ، كان التعريف : « الأدب هو الأسلوب الصحيح الجميل الذى يصور الحقائق الأدبية ، والعواطف الانسانية » . وعندى أن هذا التعريف يعد مناسبا وإن كان أقرب إلى تمثيل الأدب فى أسمى درجاته حتى ليعده بعض النقاد مانعا غير جامع . وهناك كلام كثير لعلماء العرب ونقاد الغرب فى هذا الموضوع . لا يعدو أن يكون وصفا للأدب لا يمكن الاعتماد عليه فى بحثنا كثيرا . إلا أننا نشعر أن ما أوردناه مقتبسا من آثار الكتاب يكفى لاثبات حقيقة علمية هى صعوبة تعريف الأشياء فى دقة وكمال ، لاختلاف الناس فى تصورها . وفيما يطلبون منها تحقيقه ، متصلا بأعمالهم ومذاهبهم العلمية والفنية . على أننا مع ذلك رأينا تعريفين للأدب يقف عندهما المحدثون من النقاد : أحدهما أن الأدب مأثور الشعر والنثر ، والثانى هو ما استخلصناه من كلام الأستاذ سانت بيف السابق الذكر .

— ٢ —

ولكنى لن أقف بالقارىء عند هذه الحدود التى انتهى إليها السابقون والمعاصرون من أبحاثهم الخاصة ، وصارت بذلك ملكا لهم ، وهم أقدر على فهمها وتصورها إذ كانت بذلك نتيجة تجاربهم ودراساتهم ؛ بل لا يعنينى فى الواقع ذكر هذه الرموز اللفظية التى تكون مايسمى بالتعاريف ، بقدر مايعنينى فهم طبيعة الأدب ، وأسلوب تكوينه ، وصلته بالنفس الانسانية . . . فمتى يسمى النص أدبا ؟ لا يمكننا أن نعد المحادثة ولا الأخبار العادية أو الصحافة أدبا .

وسبب ذلك أننا نقرؤها ثم ننصرف عنها ولا نعود إليها ثانيا ، إذ أن النص الأدبى يمتاز بتردد الناس على قراءته واعتباره متعة نفسية يحرص القارىء على الرجوع إليها كثيرا ليغذى فكره وشعوره ، ومعنى ذلك أن الأدب يمتاز بصفة الخلود .

ولكن المسألة لا تزال فى حاجة إلى الإيضاح ، أليست كتب الهندسة والجبر والفلسفة تحتوى حقائق خالدة لا تبليها الأيام ؟ أليس يجد الانسان فيها دائما مادة يستعين بها فى شئونه الحيوية كلما أراد ؟ هذا حق لا شك فيه . . . ومع ذلك فلم يقل أحد إن كتب الهندسة والجبر من الأدب فى شىء . . . فكيف الخلاص ؟

حقا إن هذه الكتب تحوى حقائق خالدة ، ولكن الكتب نفسها ليست خالدة بهذا المعنى السابق الذى وصفنا به الأدب ، فمن الممكن أن تؤخذ هذه النظريات والمسائل العلمية الخالصة وتدون فى صور أخرى وأساليب عدة ينصرف إليها الناس مستغنين بها عن الكتب الأولى التى كثيرا ما تبلى وتنسى ، وهنا نرى أن الحقائق فى ذاتها خالدة ولكن الكتب تموت ، فمَن منا اليوم يقرأ (إقليدس) فى الهندسة مثلا ليمتع نفسه أو حتى ليدرس النظريات الهندسية دراسة علمية ؟ ولكن كم منّا اليوم من لا يزال ، وسيبقى دائما ، يقرأ امرأ القيس ، وزهيرا ، وجريرا وأبا نواس ، والمتنبى والمعرى ؟ ! والمتعلمون عامة يظفرون بكتب فى الجغرافيا والتاريخ والهندسة والطبيعة تنسخ ما قبلها من الكتب وتقضى عليها ما دامت الموضوعات واحدة والحقائق هى بعينها . وإذا ، فليس من الكتب الأدبية ذلك النوع المعرض للنسيان والنسخ بعد حين . والذى نفهمه من ذلك أن هناك ميزة أخرى تكسب ديوان الشعر ، أو القصيدة ، أو الرسالة أو الكتاب صفة الخلود التى نتشبث بها . . . تلك أن يكون الكتاب نفسه ذا قيمة خالدة ، فهناك فرق بين الحقيقة الخالدة التى هى موضوع الكتاب العلمى ، وبين القيمة الخالدة التى هى خاصة الكتب الأدبية .

ما هذه القيمة الخالدة التى تتصل بالكتاب الأدبى وتمنحه ميزة الخلود ؟

يقولون إنها شخصية الأديب ، فالنص الأدبى يمتاز بأنه يصور ذوق الشاعر

أو الكاتب ، ومزاجه ، وفكره ، وروحه ، وخلقه ، وخواصه المعنوية التى تفرقه من سواه ، ولا يمكن أن تجتمع فى شخص آخر بهذه النسب والقوى ؛ وبذلك نرى لكل أديب طابعا تمتاز به آثاره ولا يمكن الاستغناء بشعر شاعر عن شعر زميله حتى فى الموضوع الواحد رثاء أو وصفا أو عتابا فكل له ذوقه ، وأسلوبه ، وطعمه الذى يبعث فى نفس القارىء آثارا ممتازة لا غنى له عنها بسواها .

هذه الشخصية إذا ، (Personality) هى التى تفرق الأدب من العلم وتكسبه صفة الخلود ، ولكننا نعود فنقول : ألسنا نظفر فى الآثار العلمية بشخصيات متباينة ، حين نقرأ كتب الفلسفة والقانون والطبيعة والكيمياء ، تمايز بطريقة التفكير ، والتعبير ، وأسلوب البرهنة والاثبات ؟ لا ننكر ذلك ولكننا نجد الشخصية الأدبية تمتاز بأمرين لا يتوافران فى هذه الشخصية العلمية ، أما أحدهما فهو جمال التعبير الأدبى ولذته ، وأما الثانى فهو أن الشخصية الأدبية تكون قوية واضحة ، وتكون عامة تصور نواحى النفس التى أشرنا إلى بعضها قبلا ، فى حين أن الشخصية العلمية تقف عند الفكر ، ودقته ، وأسلوبه المنطقى فى أغلب الأحيان . ونتيجة ذلك أن الأدب أدل على شخصية كاتبه من العلم . . .

كيف تكون القصيدة من الشعر أدل على الشاعر من المقالة العلمية على العالم ؟ إذا استطعنا الاجابة عن هذا السؤال ظفرنا بهذا العنصر الذى يكسب الأدب ميزته الخالدة ويميزه من سواه . . وذلك سهل يسير ، فاذا وازنا بين هذه المقالة العلمية التى لانحسبها أدبا ، وبين القصيدة من الشعر ذات القيمة الخالدة ، وجدنا فى القصيدة شيئا لانجده فى المقالة العلمية ، هو العاطفة Emotion ، فالقصيدة تقوم على العاطفة والمقالة تقوم على العقل ، وهنا نظفر بهذا السر الذى نبحث عنه منذ حين ، فهو الخاصة التى تنشأ عن العاطفة وتكسب الكلام ميزته الأدبية ، وقدرته على الخلود ، وتضعه فى مكان بعيد عن العلم ، وإذا بنا نرى كتبا علمية تغذى العقل وتستثيره ، وكتبا أدبية تثير العواطف وتربى الذوق الجميل . ولكن المسألة لم تنته عند هذه النقطة ؛ فلا زلنا فى حاجة إلى أن نسأل : لماذا كانت هذه العاطفة سبب خلود الأدب ؟ وهنا نجدنا أمام إجابة من نوع التناقض الوهمى ، فمن الغريب أن

العاطفة تخلد الأدب لأنها هى ذاتها ليست خالدة ، وإنما تزول بسرعة ولا تبقى طويلا ، فأنا أقرأ البحث العلمى فى الهندسة والمنطق وأعيه بعقلى وأترك مصادره وقلما أعود إليه بعد ما أضيفت إلى معارفى السابقة واتحد معها وصار جزءا من فكرى لا يكاد يزول ، ولكنى أقرأ — مثلا — مرثية المعرى المشهورة : —

غير مجدٍ فى ملتى واعتقادى نوح باكٍ ولا ترنم شادِ

فتثير فى نفسى عاطفة الأسى والحزن على هذا الكون تحطمه الأقدار وتذهب بكائناته إلى غير عودة ، وهذه العاطفة تشتد وتقوى حين قراءة القصيدة وعقبها ، ثم تأخذ فى الفتور فالذهاب حتى تزول بعد مدة ما ، ثم تدعونى الدواعى الفنية أو الحوادث الاجتماعية إلى إثارة هذه العاطفة فى نفسى لوفاة صديق فأعود إلى مرثية المعرى ذاتها فأقرؤها لأظفر بهذه اللذة النفسية عينها ، ثم تخبو العاطفة فأعود إلى مبعثها عند أبى العلاء فى نفس هذه القصيدة ، وهكذا دواليك . . . وهذا هو معنى أن زوال العاطفة سبب فى خلود الأدب وتردد الانسان على قراءته مرة بعد أخرى . ويجب أن يلاحظ أننى لا أستغنى عن مرثية المعرى بمرثية البحترى أو المتنبى أو أبى تمام أو ابن الرومى فكل له طعمه الخاص ، ومذهبه الأدبى ، وذوقه ، أو بعبارة مختصرة : كل له شخصيته الأدبية التى لا أجدها عند الآخر ، وفوق ذلك فقد لا أستغنى عن المعرى بالمعرى نفسه إذا ما كانت له فى كل مرثية خواص فنية وأسلوب ممتاز ، وذلك كثير الحدوث .

أفيكون من الغريب بعد ذلك أن نعد العاطفة أهم العناصر الأدبية ما دامت تميز الأدب من العلم أولا ، وتبعث فيه روح الخلد ثانيا وتدل على شخصية الأديب ثالثا ؟ .

أو يكون من الغريب أن نعرف الأدب بأنه الكلام الجميل الذى يدل على شخصية صاحبه ، أو الكلام الجميل القائم على تصوير العاطفة ، أو الكلام الذى يمتاز بهذه القيمة الخالدة ؟

— ٣ —

وبعد فليس من سداد الرأى فى شىء أن نبالغ فى قيمة العاطفة ونهمل الحقيقة (Fact) وقيمتها الأدبية ، فالمفروض أن العاطفة هى العنصر أو الركن الأدبى الأول ، ولكنها لا تستطيع الحياة دون أن ترتكز على حقيقة من الحقائق الفلسفية أو الاجتماعية التى تعد الهيكل العظمى للأدب وسنده المتين ، وإلا فما الذى يحملنا على السخط حين نقرأ للمعرى قوله :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهةً وحقّ لسكان البسيطة أن يبكوا
تحطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك

غير هذه الحقيقة الواقعة وهى أننا ألاعيب فى يد الأيام تعبث بنا ما شاءت وتفقدنا الحياة فلا نعود إليها ثانيا ؟

فعاطفة السخط أو الحسرة على الخلق ، إنما قويت وحيّت لما ساعدتها حقيقة حيوية لا شك فيها ، فكانت الأصل الذى كسته العاطفة ثوبا ساخطا متبرما بدا لنا فى أسلوب موسيقى جميل ، فأثار فى نفوسنا سخطا يشبه ما فى نفس أبى العلاء ؛ وهكذا تتعاون الحقائق على خدمة الأدب والفن حتى لا يكون أحدهما فارغا سخيفا .

وهنا نجد فارقا بين الأدب وبين فن آخر يتصل به اتصالا قويا هو الموسيقى ، فالموسيقى الخالصة تتجه إلى العواطف مباشرة بهذه الألحان والأنغام فتثيرها ، ولكن الأدب يتجه إلى عواطفنا عن طريق العقل ، فيشبه النقش والتصوير والرسم من حيث أنها تجمع بين المعانى فى الحقيقة ، والخواص الفنية المؤثرة الجميلة ، وسأترك ذلك على أن أعود إليه فى بحث خاص حين أدرس الأدب وصلته بسائر الفنون الرفيعة ، وإنما أشرت هنا إلى ذلك ، لأصل منه إلى عنصر أدبى ثالث غير العاطفة والحقيقة ، وهو الخيال Imagination فإن الأدب يمتاز بقدرته على عرض الأشياء بأشكالها وألوانها كما يفعل الرسم والتصوير ، وهو بهذه الميزة يستطيع أن يثير العاطفة ، ويلهبها فى نفوس القراء . وأشير عليك أن تدرس قصيدة البحترى فى رثاء المتوكل :

محلّ على (القاطول) أخلقَ دائرهْ وعادتْ صروفُ الدهرِ جيشا تغاورهْ

التى يقول فيها :

ولم أنسَ وحشَ القصرِ إذ ريعَ سربُه وإذ ذُعِرت أطلاؤه وجآذرُهْ

وإذ صِيحَ فيه بالرحيل فهُتِّكتْ على عجلٍ أستارُهُ وستائره

فانك تجد هذا الشاعر يسلك فى رثائه مسلكا بديعا فلا يأمرنا بالحزن أمرا ، ولا يزعم هذه المزاعم التهويلية بتعظيم الخطب والجلجلة الفارغة ، وإنما يأخذ بيدنا أو بعبارة أدق يأخذ بأبصارنا فيعرض علينا صورا حسية أليمة من خراب القصر ، وتشتت ذويه ، ومن مهانة الخلافة ، وغدر الابن بأبيه ، إلى غير ذلك مما نراه ، فنغضب نحن لهذه المشاهد كما غضب لما رآها ، وهذا هو ما نسميه الخيال ، وهو عنصر يعد لغة العاطفة وأصدق وسيلة لتصويرها بالنسبة للأديب ولإثارتها فى نفوس القراء .

كذلك المعرى عرض علينا مهزلة الحياة وجد الممات فى داليته المشهورة بصور متتابعة من عمل الخيال هى أصوات ، وأجسام ، وقبور ، ونجوم ، وغيرها حتى أبكى الناس جميعا .

وأخيرا ، كيف أنقل صورة نفسى إلى غيرى ؟ فى نفسى الحقيقة ، تسيطر عليها عاطفة ، يصورها خيال . . . فأنا للآن أديب صامت لا يعرفنى الناس ولا أؤثر فيمن حولى ، فلا بد إذا من وسيلة تصل بينى وبين غيرى بنقل هذه العناصر النفسية وإذاعتها . . تلك هى العبارة Diction أو (نظم الكلام) كما يقول عبد القادر الجرجانى . والعبارة كما ترى وسيلة لا غاية ، ولكنها لا تقل فى قيمتها عن سائر العناصر الأدبية ، لأن القدرة على إثارة العواطف — هذه القدرة التى هى وظيفة الأدب — تتوقف إلى درجة بعيدة على جمال العبارة وتأليفها تأليفا يجعلها مرآة صافية أمينة لما فى نفس الأديب ، فكثيرا ما تعق العبارة كاتبا مليئا بالأفكار ، جياشا بالعواطف ، وكثيرا ما تكتسب المعانى العادية روعة أسلوبية تجعلها فى درجة رفيعة من درجات الأدب السامى . ولعلك لم تنس ما أوردته فى العدد السابق من خلاف حول اللفظ والمعنى ، وكيف أن أبياتا

رائعة الأسلوب، عادية الأفكار، قد فازت بنصيب كبير من التقدير والإعجاب، وإن لم ينفرد اللفظ بالجمال الفنى كما أثبتنا ذلك فى موضعه.

وخلاصة هذا أننا نستطيع أن نحلل النص الأدبى إلى هذه العناصر الأربعة:

(١) العاطفة، وهى أهم العناصر وخصوصا فى أدب القوة الذى يمثله الشعر الغنائى تمثيلا واضحا، وقد تكون العاطفة فى درجة الحقائق فى مثل الخطابة والأبحاث النقدية والقصصية.

(٢) الخيال، وهو فى أكثر الأحيان يكون اللغة اللازمة لاثارة العاطفة كما رأيت فى مرثية البحترى، وكما هو الشأن فى فن الوصف.

(٣) الفكرة أو الحقيقة، وهى تعد عماد العاطفة وعونها على الخلود والسمو، وقد أصبح الأدب اللفظى الذى يخلو من الحقائق سخفا وعبثا لا يليق بالعقلاء غير أن الحقائق لا تذكر هنا جافة وإلا كانت الكتابة علما، بل تتوارى فى العاطفة وتقف خلفها شيئا ثانويا.

(٤) العبارة، وهى وسيلة لا تقل فى درجتها عن الغايات، بل يعدها بعض النقاد أهم الجميع إذ هى المعرض الأخير لسائر العناصر الأدبية.

— ٤ —

للأدب معنى عام بجانب هذا المعنى الخاص الذى ذكرنا فى هذه الصفحات، وبه يتناول جميع المعارف والعلوم التى تغذى النفس الانسانية وتقوى فيها مظاهر العقل، والوجدان، والارادة، وما أشبه هذا المعنى بما ذكره العلامة ابن خلدون فى تعريف الأدب وقد ذكرناه فى صدر هذا البحث. فحين يقول الناس: العلوم الأدبية أو الدراسة الأدبية العامة. إنما يقصدون بذلك كل ما من شأنه التثقيف النفسى المتصل بخدمة الحياة من ناحيتها الروحية. فالفلسفة أدب بهذا المعنى العام، والتاريخ أدب كذلك، ومثلهما الجغرافيا، والقانون، والدين، والفنون الرفيعة، وعلى هذا الأساس كان القسم الأدبى بالمدارس الثانوية والعالية منذ عهد قريب، وعليه قامت كلية الآداب بالجامعة المصرية وجمعت فى تكوينها بين هذه الأقسام المتشابهة فى دراساتها، التى تنتهى إلى غاية واحدة من

تنظيم التفكير الانسانى للوصول إلى الحقائق عن طريق الفلسفة ، ومن دراسة المظاهر العقلية والعاطفية فى التعبير فهى الأدب بمعناه الخاص ، ومن آثار العقل والشعور فى الحياة الاجتماعية فهى التاريخ ، ومن الصلة بين الانسان والطبيعة عن طريق الجغرافيا ، وهكذا نجد الدراسة القانونية تنظيما لحياة الانسان الاجتماعية ولصلاته مع بنى جنسه ، والدين ينظم الصلة بين الخالق والمخلوق . ويقابلها كلية العلوم التى تعنى بالدراسة الخاصة بجسم الحياة الانسانية وما يقومها تلحق بها كلية الطب والزراعة والاقتصاد فهى متعاونة على حفظ كيان الانسان من حيث تنمية جسمه وحفظه من الآفات وتوفير أسباب الراحة والرفاهية ، وبذلك تنتهى الحياة إلى هاتين الشعبتين الآداب والعلوم ، ومن الآداب ما نسميه الفنون الجميلة ، وكان العرب يسمونها الآداب الرفيعة ، فهذا هو المعنى العام لكلمة الأدب ، ونجد فى دائرة المعارف الاسلامية كلاما تاريخيا بهذا المعنى .

ألست قد خدعتك أيها القارىء الكريم حين زعمت لك أنى قادم بك على تعريف الأدب وتحديده ، فاذا بى ذاهب إلى التعريف بالأدب وذكر طبيعته وعناصره ؟ وأين هذا من ذاك ؟ ولكنى سائلك هذه المرة : أكنت تستطيع الاطمئنان إلى هذه الحدود الكثيرة التى تسمعها أو كنت تقدر على وضع حد للأدب من ابتكارك دون أن تسلك هذه السبيل التى قطعتها أنت الآن فى شىء من الحيطة كثير ؟ !

على أنى معترف أننا جميعا قد وصلنا إلى نتائج إلا تكن يقينية يحسن السكوت عليها ، فهى على الأقل نتائج تحملنا على الكلام والبحث فى بعض النقط والجوانب الأخرى التى تتم ما أشرنا إليه هنا ، وإذ قد طال المطاف فأرجو أن يكون ذلك فى العدد التالى ؟

أحمد الشايب